إثراء المعارف الرقمية



بريد الجمعة

الجُمعَة ٢٧ فبراير ١٩٩٨

يكتبه: عبد الوهاب مطاوع

# الإنذار المبكر!

**أنا شاب أقترب من الثلاثين من عمري نشأت في أسرة ميسورة الحال، وأبي مهندس ناجح وأمي ربة بيت متعلمة، وأسرتي محترمة، وقد أمضيت سنوات تعليمي كلها متفوقا وملتزما من الناحية الأخلاقية، الى ان التحقت بإحدى الكليات العملية المرموقة وتعرفت فيها ببعض الأصدقاء الجدد، فوجدت نفسي بعد قليل من بداية صداقتنا انجرف معهم الى الطريق الخاطئ، وكانت البداية صغيرة، ولا تثير المخاوف ـ كما تصورت ـ فبدأنا من باب التلع والرغبة في التجربة بتناول الأقراص المخدرة، ثم تحولت البداية الصغيرة، الى هاوية لا قرار لها.**

ووجدنا انفسنا أمام السؤال الذي يكون بداية كل المصائب في حياة بعض الشباب، وهو من اين نحصل على النقود الكافية للانفاق على حياتنا الجديدة «اللذيذة» ومتعها الكثيرة؟ ولجأنا الى نفس الحيل التي يبدأ بها ايضا كل شاب ضائع طريق التدهور السريع في حياته وراح كل منا يتحايل على أهله لكي يحصل منهم على كل ما يستطيع الحصول عليه من نقود، بافتعال الاسباب الكاذبة بحجة الدراسة مرة وبحجج أخرى عديدة، وآباؤنا يتعجبون لالحاحنا المفاجئ، على طلب النقود، ويرفضون في البداية ثم يرضخون مضطرين في النهاية، ونفد معين الاهل سريعا، او نفد صبرهم علينا.. وعلى اكاذيبنا فبدأ التفكير بيننا يتجه الى الناحية الأخطر.. وهو أن نحصل على ما نحتاج اليه من نقود بأي وسيلة.. فكانت السرقة.. وكان اول من سرقناهم هم الاهل انفسهم ابتداء من الاجهزة الصغيرة كالمسجل الى الساعات الى كل ما تقع عليه ايدينا من نقود، ثم عجز هذا «المورد» ايضا عن تلبية مطالبنا، فانتقلنا الى ساحة اوسع وبدأنا نسرق الآخرين وكأننا قد نشأنا في بيئة اجرامية وليس في بيوت شريفة وبين اباء وامهات واخوة طيبين ومتدينين.

وقد تتصور اننا قد استغرقنا سنوات طويلة من مرحلة البداية على هذا الطريق الخاطئ، الى ان وصلنا للحضيض لكن ذلك لم يكن صحيحا للاسف، فان الرحلة كلها لم تستغرق منا سوى اقل من عامين حتى تعجبت لنفسي كيف تدهور بي الحال على هذا النحو السريع، ولماذا لم اقاوم ولم ارجع عن الطريق في مراحله الاولى؟.. لكن هيهات لمن سار خطوات واسعة على هذا الطريق اللعين ان يتدارك نفسه قبل ان تنزل على رأسه المطرقة.. وقد نزلت في موعدها ولم تتأخر كثيرا.. فلقد «فوجئت» ذات يوم بالقاء القبض علي في احدى حوادث السرقة الصغيرة التي ارتكبناها، ووقع الخبر على اسرتي وقع الصاعقة، وانهار ابي وتزلزل كيانه.. ومرضت امي مرضا شديدا لم تشف منه ابدا بعد ذلك، ثم تماسك ابي بعض الشيء وتوجه لأحد اصدقائه من المحامين ورجاه ان يقف الى جواري.. ورفض المحامي الصديق رجاء ابي في البداية لاستنكاره ان يدافع عن شاب مستهتر مثلي لم يكن لديه ما يدفعه للسير في هذا الطريق الخاطئ، لكنه استجاب في النهاية تقديرا لمشاعر صديقه كاب.

ونظرت قضيتي أمام المحكمة وكانت معقدة وشائكة والتهمة تحيط بي من كل جانب.. ومع ذلك فقد استطاع صديق والدي المحامي ان يحصل لي على البراءة منها..

وتنفس ابي الصعداء، وهدأت بعض أحزان امي وامراضها الكثيرة.. والتف حولي الجميع يطالبونني بتعلم درس المحنة والعودة للطريق المستقيم، ووعدتهم بذلك بعد ان رأيت شبح المصير المظلم يقترب مني، وحاولت ذلك بالفعل وابتعدت عن هؤلاء الاصدقاء الذين انجرفت معهم للخطأ، لكنه لم تمض سوى شهور قليلة حتى وجدت نفسي أرجع إليهم مرة اخرى. ونعاود نفس سيرتنا السابقة في البحث عن النقود بأية وسيلة لتلبية مطالب «الكيف» اللعين، وفي هذه الفترة توترت علاقتي بأسرتي توترا شديدا.. وأصبحت شديد الشراسة في معاملتي لأبي وأمي، وتعثرت في دراستي العملية ورسبت اكثر من مرة ولم تمض فترة طويلة حتى فوجئت بالقبض علي مرة اخرى في تهمة سرقة جديدة، فكاد ابي يجن هذه المرة، وسقطت امي مرة اخرى فريسة للمرض.

اما أنا فلم اهتز كثيرا لانني لم أكن مذنبا في هذه التهمة.. ولم ارتكب هذه السرقة، او اشارك فيها وانما ارتكبها بعض اصدقاء الطريق اللعين وحدهم بعيدا عني.. ولقد حصلت على البراءة في الجريمة السابقة رغم مشاركتي فيها، فلماذا اخشى هذا الاتهام غير الصحيح؟ وذهب ابي الى صديقه المحامي مرة أخرى، ووقف معي من جديد وجاءت الجلسة الفاصلة في المحاكمة وترافع المحامي الكبير فأبدع في الدفاع عني، والقى مرافعة بليغة مازلت اذكر منها بعض عباراتها حتى الآن: «إن عقيدة المحكمة انما تنبني على اليقين وليس على الظن، وأن براءة مذنب خير من اتهام بريء».. الخ..

ثم نطقت المحكمة بحكمها وانا رابط الجأش هادئ الاعصاب فاذا به السجن خمس سنوات مع الشغل والنفاذ!

ولك ان تتخيل ياسيدي ما جرى لي ولابي واهلي واخوتي حين حدث ذلك، وحين تأيد الحكم ايضا في الاستئناف وفشلت كل الجهود في انقاذي منه! لقد دخلت السجن انا الشاب ابن الاسرة الطيبة، والاب الناجح والام الفاضلة، وشقيق الاخوة المهذبين المحبوبين من جيرانهم واصدقائهم، وامضيت الفترة الاولى من العقوبة وانا ساخط على هذا «الظلم» الذي نزل بي، ثم وجدت نفسي استعيد هدوئي شيئا فشيئا، واعترف بأن هذا الحكم لم يكن ظالما لي كما تصورت لانه لم يكن عقابا لي على الجريمة التي لم ارتكبها وانما عقاب متأخر على كل ما ارتكبته من قبل وتصورت انني قد نجوت من الحساب عليه ابتداء، من تعذيبي لابي وامي واخوتي بفضائحي وسلوكي الى سرقتي لهم وللآخرين فيما بعد. وحين اقتنعت بذلك هدأت نفسي كثيرا.. وتكيفت مع حياتي في السجن، ورجعت لدراستي الجامعية التي كنت قد اهملتها، وحولت اوراقي من الكلية العملية الى كلية اخرى نظرية ووجدت وقتا طويلا وكافيا لاستذكار الدروس، والنجاح في الامتحان لأول مرة منذ بضع سنوات.

وخرجت من السجن بعد ثلاث سنوات وبضعة اشهر بوجه جديد، وبإصرار شديد على ان اكون انسانا آخر، فاصطدمت حتى الآن بمشكلتين الاولى هي محاولة الرفاق القدامى الاقتراب مني من جديد، والثانية هي نظرة المجتمع من حولي الي وكأنهم لا يصدقون انني قد تغيرت وانني احاول ان اكون انسانا مختلفا، او كأن نظرتهم الي قد تجمدت عند اخطائي السابقة مع ما يسببه لي ذلك من احباط شديد وارتباك في التعامل مع الآخرين، فماذا افعل ياسيدي لكي استعيد ثقة الآخرين في؟ وهل كتب عليّ ان افقد ثقة الناس واحترامهم الى الابد؟ وماذا تقول لهم لكي يصدقوا انني قد تغيرت بالفعل؟

## ولكاتب هذه الرسالة أقول:

**لن اقول للآخرين شيئا.. لأننا لا نستطيع ان نلومهم كثيرا على انهم لا يصدقون بسهولة اننا قد تغيرنا واصبحنا جديرين بثقتهم واحترامهم وتجاوزهم عن حسابنا الطويل السابق من الاخطاء، لمجرد اننا «نقول» لهم الآن وبمجرد عودتنا القريبة للطريق القويم اننا قد اصبحنا اشخاصا ملتزمين اخلاقيا.**

**فالثقة والاحترام لا يتحققان بمجرد رغبتنا فيهما ولا بطلبنا لهما، وإنما يتحققان بالفعل من خلال تجارب الآخرين معنا، واختبارهم المتكرر لإخلاقياتنا وامانتنا معهم ومع الحياة فنحصل في كل مرة ننجح فيها في هذا الاختبار على شيء من رصيد الثقة والاحترام لديهم، ويتراكم هذا الرصيد تدريجيا وعبر التجارب والاختبارات الى ان ننجح في النهاية بالفوز باطمئنان الآخرين لنا وثقتهم في التزامنا الاخلاقي. وليس من حقنا في كل الاحوال ان نلوم الآخرين على تشككهم في صدق التزامنا بعد ان ابحرنا نحن طويلا في بحر الخطيئة والانحراف، ولا هو من حقنا ايضا ان نتوقع منهم ان يستقبلونا استقبال الفاتحين ويهبونا على الفور الثقة والاحترام والتكريم لمجرد اننا قد تعلمنا اخيرا الدرس من اخطائنا ونجونا بانفسنا من بحر الضياع، وانما علينا ان نعمل بجد وامانة لإستعادة ثقة الجميع فينا، بالالتزام الاخلاقي المضاعف، والبعد التام عن كل المظان والشبهات التي تجدد الشك فينا، وان نؤمن دائما بأن الآخرين ليسوا مدينين لنا بشيء لكي نطالبهم بادائه لنا من خلال ما نطالبهم به من ثقة واحترام وترحيب، وانما نحن المدينون لهم بالاعتذار عن كل اخطائنا السابقة في حقهم وفي حق الحياة ونحن المطالبون بأن نصبر عليهم الى ان يطمئنوا الى صدق ندمنا على اخطائنا وصدق تطهرنا منها..**

**فاذا كنا نطالب الجميع دائما بالا يجلدوا الآخرين باخطائهم السابقة الى النهاية، وان يفتحوا أمامهم دائما ابواب الرحمة.. والعودة الى الطريق القويم، فلابد ان نسلم ايضا بأن «نظرة المجتمع» المتشككة هذه تجاه بعض العائدين حديثا من رحلة الانحراف الطويلة والضياع هي جزء من العقاب الاجتماعي للخاطئين على خروجهم المتكرر عن جادة الصواب، ولابد ان نقبل بها، كما قبلنا من قبل بالروادع العقابية الاخرى الى ان ننجح في تغيير هذه النظرة الينا بسلوكنا الأمين مع الحياة.**

**والانسان الأمين مع الحياة يحتاج عادة الى زمن ليس بقصير لكي يصبح جديرا بثقة الآخرين واحترامهم، فاذا انحرف عن الطريق القويم، ثم رجع من جديد الى شاطئ الاستقامة فانه يحتاج الى جهد مضاعف ووقت اطول لكي يغير افكار الآخرين عنه ويقنعهم بانه قد اصبح بالفعل انسانا امينا وشريفا مرة اخرى.**

**ولا عجب في ذلك لأن من يألف الاغتسال كل يوم لا يحتاج الى وقت طويل لكي يتطهر مما يعلق به من ادران، في حين يحتاج من يدخل المطهر لأول مرة بعد غياب طويل عنه الى وقت اطول لكي يتخلص مما تراكم عليه من ادران «والقوي من الشجر.. لا يعجل بالثمر» كما يقول لنا جمال الدين الافغاني، وشجرة احترام الآخرين وثقتهم فينا من هذا النوع القوي من الاشجار الذي لا يعجل بالثمر والذي يتطلب جهدا مخلصا ودءوبا لرعايته وخدمته لكي يثمر ثماره المرجوة.**

**فاذا كنت تسألني ماذا تفعل لكي تغير افكار الآخرين عنك وتسترد احترامهم لك، فإني اجيبك بالا تفعل شيئا محددا سوى الالتزام الاخلاقي والديني الشديد، وربما الى حد التزمت في تعاملك مع الحياة ومع الآخرين لتعويض الاستهتار الاخلاقي السابق ثم الصبر بلا ملل بعد ذلك حتى تثمر الشجرة القوية ثمارها الطبيعية في موعدها القريب باذن الله.**

**اما انك قد عوقبت على جريمة لم ترتكبها، ونجوت من جريمة ارتكبتها بالفعل، فأي غرابة في ذلك ايها الشاب؟ ألسنا نحاسب في الدنيا، وفي الآخرة حسابا إجماليا عن كل اعمالنا وخطايانا، اولا «يملي» الله سبحانه وتعالى احيانا للخطاة فيستر بعض عوراتهم واخطائهم أملا في ان يرجعوا عن غيهم ويكفروا عن خطاياهم؟ فاذا تعاموا عن فهم الاشارة الالهية اليهم وانذارها المبكر لهم بالعودة للطريق القويم قبل فوات الأوان، «أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون» الانعام ٤٤. أي حائرون مبهوتون وبجريمة ارتكبوها او لم يرتكبوها، لأن حساب السماء معهم قد جاءهم بغتة عن كل ما جنت ايديهم من قبل!**

**لقد أخطأت فهم الاشارة الالهية لك في الوقت الملائم حين نجوت من العقاب على جريمة ارتكبتها بالفعل، وتجاهلت ما تحمله لك من انذار مبكر، فماذا كنت تتوقع سوى ان تدان في جريمة لم ترتكبها لأن حسابك الختامي مع السماء قد استوجب الآن العقاب.. عسى ان تفيق من غيك وترجع الى شاطئ الاستقامة قبل ان تتمادى اكثر واكثر في الضياع. إن السماء لم تظلمك لكنك انت الذي ظلمت نفسك وابويك واخوتك واهلك والمجتمع، وكان حقا للارادة الالهية ان تكشف عنك غطاء سترها لك بعد ان ضيعت كل فرص الإستفادة من الرفق الالهي السابقة بك، ولقد فهمت انت اخيرا ذلك فرجعت الى الطريق القويم.. فاهلا بك عليه.. وارجو ان تثبت اقدامك على جادته، وأن تنأى بنفسك عن كل تعامل مع رفاق السوء القدامى هؤلاء.. وان تتفادى حتى مجرد تبادل التحية العابرة معهم، وان تفر منهم فرار السليم من الاجرب قبل اكتشاف دواء الجرب، خوفا من تجدد الصلات.. والتعرض لنفس الاغراءات القديمة والضعف امامها والسلام..**